نعي دوروثي هيثكوك

دوروثي هيثكوك الحائزة على وسام الإمبراطورية البريطانية التي وافتها المنية عن عمر يناهز الخامسة والثمانين، كانت معلمة ذات صيت عالمي، ثوّرت استخدام الدراما في التعليم مبتكرة تقنيات عدة رائدة.

من الصعب أن نفهم كيف لفتاة بدأت العمل في مصنع نسيج يوركشيرٍ وهي في الرابعة عشرة من عمرها، أن تصبح في العام 1940 شخصاً مفتاحياً في عالم التعليم والدراما، وأن تكون في الرابعة والعشرين من عمرها محاضرةً في نيوكاسل بجامعة درهام، لتبدأ حياة مهنية دامت ستين عاماً، ولتصبح في ذاك الوقت مصدر الإلهام والمثال المحتذى لأجيال من المعلمين –من أنحاء العالم كافة– أدركوا أن بمقاربتها الفريدة وسائل يتسنى للطلاب والشباب عبرها الانخراط بتعليمهم على مستوى عميق.

في العام 1945، جاء في العناوين الرئيسة لصحيفة يوركشير أن «نساجة (عاملة نسيج) تنال فرصة للتمثيل المسرحي». وبالفعل، تلقت هيثكوت التدريب كممثلة بتمويل من مدير مصنع النسيج. وعلى الرغم من أنها أحبت التمثيل، فإن رؤياها كانت أبعد من الخشبة، وباتجاه استخدام المسرح كبنية تعليمية. بشكل فطري، أدركت النزعة الإنسانية الطبيعية لاستخدام الدراما في استكشاف العالم وفهمه، وتطوير مهارات الحياة الأساسية الضرورية. وبهذا الإدراك، أعدت هيثكوت نفسها لمهمة ترجمة رؤياها إلى ممارسة

صفية للفئات العمرية كافة، ولا تزال تلك الممارسة مصدر إلهام للملايين.

لقد كانت مَلَكَةُ هيثكوت تكمن في قدرتها على التأثير في الناس، وأن تهب كل ما تعرفه لأولئك المهتمين، وشرعيتها تأتي من كون المهتمين كثراً، ومستعدين «للوقوف على كتفيها» ليكملوا عمل إنسانة عبقرية يعتبرها الكثيرون أفضل معلمة دراما على الإطلاق.

ظلت هيثكوت في نيوكاسل عندما أصبحت جامعةً في العام 1962، ومن كلية التعليم هناك بدأت دعوة معلمة الدراما الشابة الكرزماتية بالانتشار، انفتاح روحها وراديكاليتها، كانا بيداغوجيا جديدة جذبت إلى نيوكاسل سيلاً من طلاب الدراسات العليا. وبكرم رحبت هيثكوت بهم في بيتها الخاص، وصار زوجها ريموند وابنتهما ماريان معتادين على مشاركة منزلهما مع وفود سنوية من المقيمين الضيوف من داخل البلاد وخارجها.

ابتدعت هيثكوت مدرسة تطبيق كاملة للدراما، مستندة إلى إزاحة بيداغوجيا المعلم من موجّه الى مكتشف، مدرب، مسهل، وفنان مشارك، مدركة ممكنات التعلم عبر عملية إبداع تشاركية تعطى فيها القوة للمتعلم. وأوجدت مفردات للمصطلحات مثل الدراما للتعلم، والأعراف الدرامية، وتدوير الدور، ومسرح الحجرة، والإطار، والإشارات، وعباءة الخبير، والتفويض، وهذه المصطلحات كافة جديدة في شرع خبراء التعليم الدرامي ومعاييرهم، ونماذج المناهج على المستوى العالمي، وأن تجلب المتعة والتحدي للتعلم، مثل ريادية المهمة التي أناطتها لنفسها بعمق.

وكلما عاد طلابها إلى مواقع عملهم، كان تأثير هيثكوت واضحاً فيهم، ما يثير حماساً دائماً للإبداع في العمل مع الأطفال، والشباب، والمعلمين، والطلاب من أنحاء العالم كافة، كانت تقبلهم ومعهم تثوّر استخدام الدراما كعملية تعلم للعالم أجمع، وعلى نطاق واسع من السياقات، فعملت في بلدات مثل سويتو في جنوب أفريقيا، وفي نيوزيلاند مع مجتمعات الماروي (السكان الأصليين لنيوزيلاند)، وفي قلب المدن الداخلية للملكة المتحدة، وكذلك في دول مختلفة في أوروبا، وآسيا، وأفريقيا، وأمريكيا الشمالية، وأستراليا، كما عملت في مؤسسات إصلاح الأحداث في المملكة المتحدة والولايات المتحدة، وفي مراكز سكن وتعليم ذوي الحاجات الخاصة، وفي المدارس الخاصة، ومع أولئك الذين يعملون مع الفئات الضعيفة، وحتى في مراحل مرضها المتأخر، وجدت هيثكوت طرقاً مبدعة للمساهمة كالفيديوكونفرنس . . . على سبيل المثال.

وبكل الأحوال، وأينما سافرت هيثكوت لتعلم، كانت تحاول أن تستقل أول طائرة ممكنة للعودة للبيت. ظلت هيثكوت سيدة البيت، وكان جل قلبها أولاً لعائلتها وجيرانها وأصدقائها المقربين، كانت الطاهية، وصانعة الخبز، الخياطة، والبستانية، كما عرف عنها استيقاظها المبكر في الصباح لتعد النهار إلى جانبها قطتها المفضلة وفرنها الكبير. كانت تحمل كتاباً أينما ذهبت، وشغوفة بكتابة الرسائل، تحب نزهات العائلة الخارجية، والذهاب للمسرح، ودعمت حفيدتها آنا في نشاطاتها كافة في مجالي المسرح والرقص.

وفي جامعة نيوكاسل، وصلت طرائقها الرائدة إلى كلية الطب، فكثير من الأفلام تركز على إعادة التكوين الدرامي للقضايا الطبية، وصارت تستخدم في تدريب الطواقم الطبية. وبالمثل، انخرطت هيثكوت مع شركة الغاز البريطانية التي أدرك كبار مديريها أهمية الطرق والبنى المتبناة باستخدام السياق الدرامي لتدريب الأطقم الإدارية على مهارات جديدة في مكان العمل، تبع تلك العلاقة علاقات أخرى مع شركات مثل (NHS)، و(UK)، و(Volkswagen) وحديثاً مع (Crown Prosecution Service)، والمسرح المهني.

لقد كانت هيثكوت ذهناً دائم الانشغال والاتقاد بالأسئلة وذا تفكير إبداعي مكّنها من إدراك الصلات بين عملها وعمل الآخرين على امتداد طيف واسع من الطرائق. لم تشعر هيثكوت بالرضا والاكتفاء، فظلت حتى وقت قصير قبيل وفاتها منشغلة بتطوير ممارستها وتحسينها، ما أنتج بيداغوجية غنية النسق وكثيفة المغزى، تثير وتلهم كلاً من طلابها وأولئك الذين سعوا وما زالوا لمحاكاتها.

وقد نالت هيثكوت العديد من الجوائز والتكريمات، ما أفضى إلى منحها دكتوراه فخرية من جامعة نيوكاسل، تلتها دكتوراه أخرى من جامعة تاين، وثالثة من جامعة ديربي، هذا إلى جانب تكريمات ودعم من هيئات مهنية وطنية وعالمية كالدراما الوطنية، والمؤسسة الوطنية لتعليم الدراما، ودعوات للمحاضرة في أكثر التجمعات رفعة، وبخاصة في نيويورك، كما كرمت عبر كتاباتها والكتابات التي أنتجت بالتعاون ما بينها وبين طلابها المرموقين، الذين بلغوا ما بلغوه من خلال تعليمها لهم، وقامت هيئة الإذاعة البريطانية في العام 1974 بإنتاج فيلم رائع حول خبرتها «ثلاثة أنوال تنتظر» -يمكن مشاهدته على موقع اليوتيوب- ثم قُلدت وسام الإمبراطورية البريطانية في لائحة شرف عيد مولد الملكة في الحادي عشر من حزيران، الذي كان ينبغي أن تتقلده في قصر بيكينغهام في الثامن عشر من تشرين الأول، ولعلمها المسبق أنها نالت هذا الشرف، كانت أمنيتها على عائلتها التي حملت اسم هيثكوك لجيلين لاحقين، أن يتلقوا الوسام نيابة عنها.

قالت مخاطبة حشداً من المعلمين «أتطلع قدما للموت» ولما تنهد الحضور قالت باغتباط «طبعاً دون أي مشاعر أسى، إنما تطلع إلى المغامرة الأكثر عظمة وغموضاً بين كل المغامرات» . . . هكذا قد بدأت هيثكوت مغامرتها في الثامن من تشرين الأول عندما توفيت نتيجة لخلل في الدم.

سيعقد حفل الاحتفاء بحياة دوروثي هيثكوك الساعة الواحدة ظهرا من يوم الأحد الموافق 11 كانون الأول 2011 في St. Werburgh's Church, Church Street, Spondon, DERBY DE21 7LL، الجميع مدعوون، لكن يرجى الحجز مسبقاً مع ابنة دوروثي.

دوروثي هيثكوك
ولدت في التاسع والعشرين من آب في العام 1929
توفيت في الثامن من تشرين الأول في العام 2011